

عن نظرة الفنان والملاذكوليا الجديدة: أعمال المصورة إلينا بروتيروس؛ الجسد كأرض بور مسكونة بالمرايا

تتطرق هذه المقالة إلى فنّ الصورة الفوتوغرافية لدى المصورة الفنلندية إلينا بروتيروس وعلاقتها مع الملاذكوليا وطرق رؤية الجسد في علاقته مع الذات والآخر.

نص كتبتها خليل بركات سبتمبر 9، 2022

في مكانٍ سرّيٍّ تحت الأرض، لا تصله الشمس إلا نادرًا، مفتوحٌ على غرفٍ كثيرة، تقف إلينا بروتيروس Brotherus Elina المصورة الفنلندية في وسط حوض الاستحمام الحجريّ والماء يطمّ جسدها حتى رأسها. لست دقاتٍ متتالية تقف كأنها مذهولة، تحدّق ناحية الكاميرا مثبتة ذراعها على سطح الماء، حتى لو كانت حركتها هشة وغير مسموعة. وما هي إلا لحظات حتى تفتح فمها، ليحس المتفرّج بأنها على وشك أن تقول شيئًا، وتخفف عنه التوجّس المهيّب الذي تحيط به. لكن سرعان ما تعاود إطباقه لتفتحه بين الفينة والآخرى مثلما تفتح الأسماك الصغيرة أفواهها من دون أن تتفوّه بشيء.

منذ اكتشافه في أحد الأحياء اليهودية القديمة في مدينة مونبيلييه الفرنسية، يعدّ هذا الحمام الطقسي والذي يسمى بالعبرية الميكفيه (Mikvé le) أحد أفضل الحمامات المحفوظة في أوروبا.

الميكفيه هي طقس يهودي للطهارة، يعود إلى العصور الوسطى كما تذكر بعض المصادر، بما أنّه يقوم على تجميع الماء الذي يندف من مياه الأمطار والينابيع وغيرها، أي كلّ ما هو مقدّس وتحلّ فيه صفات إلهية.

في أغلب صورها، تقف إلينا وهي تدير ظهرها للمتفرّج، تقول أنها تريد أن تدفع الناس على أن يتأمّلوا لأنّ "النظرة المباشرة تعني المواجهة والتّحدي"، لهذا يرى الناظر إلى صورها أنها تتخذ من الحمامات وانعكاسات المرايا والبرك الصغيرة والينابيع حيزًا وافرًا لممارستها الفنية، جامعة في هذا بين تاريخ الفن، إذ أنها تعيد تشكيل بعض اللوحات المعروفة لفنانين عالميين، وتضفي عليها طابعًا تجريديًا، يطرح أسئلة جديدة حول علاقتنا بأجسادنا، وبالأحرى، وبالنظرة التي نحملها لأنفسنا حين نطلق عملاً فنيًا ما، منفصلاً عنّا، وهذا ما قامت به في سلسلة صور فوتوغرافية بعنوان "هذا ليس إلا فوتوغرافًا". تظهر إلينا في كل صورها، كموديل، لكنها سرعان ما تخبرنا، أنها لا تبحث عن هذا الجانب البيوغرافي وحسب، وإنما في تواجدها بهذا الشكل في إطار الكاميرا هذه، فإنها تظهر جسدها بتجربة منفصلة، هي تجربة الموديل. الموديل في أغلب الصور الفوتوغرافية واللوحات الفنية هم مجموعة من الأشخاص لديهم نظرة فارغة للأشياء، وغالبًا ما يكونون محدقين في الكاميرا، وإذا عدنا إلى بعض اللوحات فسندج كيف أن الرسامين الذين يستخدمون موديلًا ما في لوحاتهم، لا يبرزونه بقدر ما يبرزون أنفسهم من خلاله. الفنان يحدّق بالموديل، ويتأمّله، ويشاهده، بينما يشاهد الموديل لا أحد على وجه الدقة. لكن أن تقف وتدير ظهرك للكاميرا فهذا أمر جديد، وهذا ما تسميه نظرة الفنان، أي النظرة التي تدفع للتأمل لا إلى المواجهة. لهذا تساعد المساحات الكبيرة، والانعكاس على سطح الماء على التعبير عن هذه النظرة التي يملكها الفنان على الموديل الخاص به. إن نظرة الفنان هنا هي ليست نظرة رجولية ولا أنثوية، هي نظرة طيفية، شبحية، neutre.

كما تشير إلى الهوية المزدوجة التي تملكها بروتيروس عن نفسها. الموديل في صورها الفوتوغرافية إذن يتحول من موضوع للمشاهدة إلى مشاهد، إلى صانع صورة، أي أنه يخرج من دوره التاريخي، الذي يبرزه على أنه أثار أو تمثال صلب، ويمنحه مكانًا آخر يساعد على المراقبة والتفحص، وإطلاق الآراء حتى لو كان ثابتًا لا تهتز أطرافه. وهذه هي حالة المصورة عيناها، التي تطرح نفسها هذا السؤال الدائم: من أنا حين أكون خلف الكاميرا؟ هل أنا صانعة صور وحسب؛ أم أنني أيضًا موضوع هذه الصورة

من هو الموديل؟ هل لديه نظرتة الخاصة؟ هل لدى الفنان نظرتة المنفصلة؟ هل نظرة الفنان هي نفسها نظرة الموديل؟

تقول بروتيروس:

"كاستراتيجية نجاو يعمد البعض إلى إضفاء مفاهيم على الفوضى وتجلياتها عن طريق تسميتها، هكذا تكون هذه الأسماء طريقتهم للسيطرة على بيئاتهم وحيواتهم. أما في حالتي فكان السؤال دومًا يتعلق بسيطرة مضاعفة؛ أن تأخذ صورًا فوتوغرافية، مثل تسمية الأشياء بمفاهيم معيّنة، هو طريقة للسيطرة على العالم."



[1]إيلينا بروتيروس، البحيرة الخضراء، 80x97 سم / 105x128 سم، 2007
بلطف الفنانة

يكتب جون بيرغر في طرق الرؤية seeing of Ways: "ينظر الرجل إلى المرأة، المرأة تنظر إلى نفسها على أنها أصبحت موضع رؤية". العري الذي تظهر فيه بروتيروس في أغلب صورها، يلعب على ثيمتين أساسيتين، تتعلقان بالموضوع والمتفرج، بالجسد في حيز أليف بيتي domestic وخارجي External /scrutinizing. وهذا ما يسميه رولان بارت Barthes Roland التعامل مع واقع لا يمكن التماسه. لهذا تقول أن "الجسد الإنساني بجماله وبلاسته لا يكف أبداً عن أن يكون مدهشاً بالنسبة لي". بالعودة إلى الميكيفيه، والحيز البيئي/ الحمام الذي تأخذه إيلينا في أغلب صورها، كمكان للاستكشاف والتخفي، والعنف المباشر والملموس، والبلادة الرتيبة، فإنه لأمر معروف أن تاريخ الفن، يربط بين أحواض الاستحمام والميلانكوليا، مذ رسم جاك-لموي دافيد David Louis-Jacques لوحته الشهيرة، موت مارا Marat de mort la، التي يظهر فيها صديقه وسط حوض الاستحمام والدُم يغطي رقبتة وصدرة.

[2] [a portrait of a couple.jpeg](#)



[3]إيلينا بروتيروس، صورة ذاتية لزوجين، 105x127 سم، 2007
بلطف الفنانة

إن هذه النزعة لتصوير أحواض الاستحمام على أنها أماكن عدائية، وميلانكولية، مرتبطة بالموت والفناء والنزعة الملهية لتدمير الذات، معروفة في أدبيات كثيرة، إذ يشير عالم النفس الألماني إميل كرايبلين Kraepelin Emil إلى الوشائج التي تربط ما بين الانتحار وأحواض الاستحمام، أي حوض الاستحمام باعتباره مكانًا يقصده المنتحرون لإطلاق صرخاتهم الأخيرة وفي هذا يقول "حين يتعدون عن نظرات من حولهم، وبقطة الحضور الطاعني، قد يغرقون أنفسهم في أحواض الاستحمام، أو يعلقون أنفسهم على مزالج الأبواب".

في شقتي القديمة، كان لي حمام أزرق، يختلي بنفسه على الجهة اليمنى من الحائط الذي تغزوه اللوحات الإفريقية، البشعة جدًا والتي لم أكن أعلم سبب تعليقها في تلك النقطة بالذات. كان هذا الحمام استعاضة كبرى عن الوقت الضائع وعن المقابر التي لم أعد أراها في المدينة. بين الساعة السادسة والسابعة من مساء كل يوم وبعدما تغيب الشمس، أملاً حوض الاستحمام وأهبي نفسي للقفز في وسطه. لهذا فإن هذه الفوتوغرافات تلمسني براديكاليته الدموية المغرفة في تفاصيل الجنون والشاعرية كما في لوحات بيار بونارد، والتابلوهات الكثيرة التي رسم فيها مارت، في سويغات مختلفة من النهار، وهي تفرك جسدها تحت الماء، أو تدبر ظهرها لأثاث الغرفة، وهي مستلقية في حوض الاستحمام، غير مبالية في شيء.

في أحد كتبه، يذكر إريك وبلسون أن "الحمامات الحارة كانت تستعمل للتخفيف من برودة الميلانكوليا وحدتها وأن وفرة الماء تفكك صلابتها البليدة وجفافها" (71 Wilson) وهذا أمر معروف في كل العلاجات النفسية التقليدية التي نراها في الكثير من المسلسلات والأفلام والمراجع التي تناولت هذا الموضوع. باعتبار أن الماء الحار جدًا أو حتى البارد جدًا يساعد على تهدئة الشخص المضطرب ويعيد له صوابه. وهكذا تظهر بروتيروس وهي تنظر نحو المرأة في حمامها، في أكثر من صورة، جسد عار، خائف، متشرد في وسط الحمام، مكتفي بتأمل نفسه، منكفي على ذاته، في عزلته.

[4] [in the mirror.jpeg](#)



[5] إلينا بروتيروس، في المرآة 1، 40x52 سم، 2007
بلطف الفنانة

إن تاريخ النساء مع الميلانكوليا، هو تاريخ طويل، لكنه هامشي ومقصي، إذ منذ أرسطو تعتبر النساء هسپتريات، إذا عبرن عن عواطفهنّ، أو إذا ظهرن منكفئات على أنفسهن، متأملات أو سارجات في الوحدة والحزن. لأن الإدعاء بأن الحزن العظيم يجعل من الرجال كائنات عظيمة، بينما يجعل النساء يفقدن صوابهنّ، ثيمة تاريخية مكرّرة، لا تحيد عن الانتهاكات والتجاوزات.

الميلانكوليا التي تعود إلى اليونان، المشتقة من كلمتين تعنيان "العصارة السوداء" مستخدمة تاريخيًا لتسمية هذه الحالة التي يصبح فيها الوجود رماديًا، حين تغيب النظرة في الأفق وتسرح. تمامًا مثل نظرة كلب عابر، إذ أن الكلاب أيضًا في جحيم دانتية وأفلام لارس فون تراير هي رموز مؤصلة للكآبة والحزن العميق.

الميلانكوليا في اليونان القديمة حزن عظيم، مشرّح، يجعل الرجال عظماءً وواسعي الاطلاع، لكنها عند النساء قلة حظ، وعلامة على الجنون والهستيريا.

لكن هذه الصور الفوتوغرافية التي تعرضها إلينا تعيد هذه العلاقة للنساء مع الميلانكوليا التي كنّ محروماتٍ منها، إن هذه الأجساد التي تركّز مسرعة في إطاراتها، لا يمكن إلا أن تكون أجسادًا ميلانكولية تعاود اكتشاف نفسها في أماكن تتسم بالألفة لكنها تبعث على الخطر والتوجس.

وهي في مجملها تأملات في الحياة الإنسانية الصغيرة اليومية، والمساحات المعبر والمسكوت عنها، تماما كأجساد العفاريات والعرفان الموصومين بأسماء لا تشبههم.

[6] [reflection.jpeg](#)



[7] إلينا بروتيروس، انعكاس، 40x56 سم، 2010
بلطف الفنانة

إن أعمال بروتيروس هي حفر داخلي في النفس الإنسانية، يعيد الحوار مع الجسد وأشكاله وتمظهراته، ويطرح أسئلة كثيرة حول الأرشيف الشخصي لكاتبنا، والأوتوبوغرافيا التي مهما حاولنا أن نكون شخصيين في تصويرها، لا يمكن إلا أن تمتد اليد للآخر الآتي من الضفة البعيدة، ليحطينا برومانسية ما، تعيدنا إلى أسئلة أخرى عن مفهومنا للذات وعلاقتنا بها. وإلى أي حد يمكن لنا أن نكون صادقين حقًا في تصوير أنفسنا من خلال عمل فني ما، يتجاوز الحياة اليومية ونعومتها وينسى نفسه في تفاصيل الجنون وتجاربه التي لا تحد.

* إلينا بروتيروس مصورة فنلندية، درست الكيمياء قبل أن تتوجه إلى مدرسة للفن في فنلندا وتبدأ مسيرتها الفنية وممارستها الفوتوغرافية، تقيم في فرنسا. تقيم معارض كثيرة حول العالم. تتعامل في صورها مع ثيمات تتعلق بالموضوع والمتفرج/الميلانكوليا النسائية/الجسد في الحيز العام والخاص/الطبيعة وتمظهراتها على الجسد الإنساني/ نظرة الفنان على نفسه وعلى الموديل الخاص به وعلاقتها مع الكاميرا.

مراجع :

- Artist and her model (2005-), Elina Brotherus photography
- The new painting (2000-2004) April 2001, Elina Brotherus
- Meaningless work (2016-2017), Elina Brotherus

http://tohumagazine.server288.com/ar/article/%D8%B9%D9%86-%D9%86%D8%B8%D8%B1%D8%A9%D9%90-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%86%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%90%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%83%D9%88%D9%84%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D8%A3%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B5%D9%88%D8%B1%D9%91%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%8A%D9%86%D8%A7-%D8%A8%D8%B1%D9%88%D8%AA%D9%8A%D8%B1%D9%88%D8%B3%D8%9B-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B3%D8%AF%D9%8F-%D9%83%D8%A3%D8%B1%D8%B6%D9%8D-%D8%A8%D9%88%D8%B1%D9%8D

Links

- [1] https://tohumagazine.com/sites/default/files/Green%20Lake.jpeg
- [2] http://tohumagazine.server288.com/ar/file/portrait-couple.jpeg
- [3] https://tohumagazine.com/sites/default/files/a%20portrait%20of%20a%20couple.jpeg
- [4] http://tohumagazine.server288.com/ar/file/mirror.jpeg
- [5] https://tohumagazine.com/sites/default/files/in%20the%20mirror.jpeg
- [6] http://tohumagazine.server288.com/ar/file/reflection.jpeg
- [7] https://tohumagazine.com/sites/default/files/reflection.jpeg